

مسألة تصنيف العلوم عند المسلمين وغيرهم (1)

عبد الله لعربي

أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة حاليا، وبالمدرسة الوطنية المتعددة التقنيات بالحراش سابقا.
dr.abdallah.laribi@gmail.com

مقدمة

تناولنا في العدد الرابع، من مجلة بشارات العلوم، مفهوم العلم في الفكرين الإسلامي والغربي، وقمنا بضبط مفهومه في الفكرين المذكورين، وبيان أوجه الاتفاق والتباين بينهما، وشرحنا أسباب ذلك. ونحاول في هذا العدد التطرق لمسألة تصنيف العلوم عند المسلمين وغيرهم تكملةً وامتدادًا للموضوع السابق لما لهما من ارتباط وثيق واتصال لصيق. إن مسألة تصنيف العلوم من المسائل القديمة المتجددة، فهي قديمة بقدم العلوم والمعارف، ومتجددة بما جدّ من علوم ومعارف في عصر الرقمنة وطوفان المعرفة الذي نعيشه. وتصنيف العلوم حاجة معرفية ملحة، وضرورة تعليمية بيداغوجية أكيدة. فبالصنيف تميز العلوم عن بعضها وتُدرّك الفروق بينها، ويسهل فهمها والاستفادة منها والبناء عليها.

في هذا الجزء الأول من مسألة تصنيف العلوم عند المسلمين وغيرهم، نسعى إلى الإجابة عن التساؤلات التالية: ما المقصود بالتصنيف عامة، وتصنيف العلوم خاصة؟ وهل يُعدّ تصنيف العلوم علمًا؟ وما هي خصائصه؟ وما موقعه من الخريطة المعرفية؟ ثم ما هي المعايير المعتمدة في تصنيف العلوم؟ وهل لتصنيف العلوم فوائد؟ وهل عرفت الحضارات القديمة فكرة تصنيف العلوم قبل فلاسفة اليونان؟ وما هو تصنيف العلوم عند اليونان والرومان؟ وفي الجزء الثاني سنحاول الإجابة عن الأسئلة الخاصة بمسألة تصنيف العلوم عند المسلمين والأوروبيين والأمريكيين.

1. تصنيف العلوم

1.1 التصنيف

التصنيف لغةً، كما جاء في لسان العرب، هو "تمييز الأشياء بعضها من بعض، وصنّف الشيء: ميّز بعضه من بعض، وتصنيف الشيء جعله أصنافاً" [2].
واصطلاحاً "هو تقسيم الأشياء أو المعاني وترتيبها في نظام خاص وعلى أساس معين بحيث تبدو صلة بعضها ببعض، ومنه تصنيف الكائنات والعلوم" [14].
وتجدر الإشارة إلى أن كلمة "تصنيف" كانت تُستعمل "في القديم على أغلفة بعض الكتب في مقابل معنى التأليف الآن. فمن يؤلّف كتاباً يُعدّ مصنّفًا لأنه جمع علومه ومعارفه ورتّبها وبوّّها على نحو منظم ينتقل فيه من الفكر العام (أو المعلوم) إلى الخاص (أو المجهول) وصولاً به إلى غاية معينة هي نتيجة البحث وهدفه، ولا شك أن ذلك الطريق المنهجي والتصنيفي يختلف من مصنف إلى آخر" [13].
والتصنيف الذي نقصده، في هذا المقال، هو المعنى الوارد في التعريف الاصطلاحي السالف الذكر، وليس المعنى المرادف للتأليف.

2.1. علم تصنيف العلوم

حسب طاش كبري زاده (ت. 968 هـ)، "هو علم باحث عن التدرج من أعمّ الموضوعات إلى أخصها ليحصل بذلك موضوع العلوم المتدرجة تحت ذلك الأعمّ" [12]. ولهذا العلم تسميات متعددة، فهناك من سماه **مفاتيح العلوم**، مثل الخوارزمي (ت. 387 هـ)، وبعضهم سماه **فاتحة العلوم**، مثل أبو حامد الغزالي (ت. 505 هـ)، ومنهم من سماه **أبجد العلوم**، مثل صديق خان القنوجي (ت. 1307 هـ)، والبعض الآخر سماه **ترتيب العلوم**، مثل الساجلي زاده (ت. 1145 هـ)، وغيرها من المسميات الكثيرة التي تشير إلى تجذّر هذا العلم في التراث العربي الإسلامي [15].

إن مساهمات المسلمين في هذا العلم تعكس جوانب مشرقة من إبداعاتهم العلمية، مما دفع بالمستشرق فرانس روزنتال Franz Rosenthal (1914-2003) إلى التنويه بالمجهودات العربية في مجال تصنيف العلوم وعرضها بطرق منظمة إذ جعل مؤلفاتهم ورسائلهم تمثل مشروعاً علمياً بارزاً وامتيازاً عن التصنيفات الإغريقية السابقة [10].

ويُحسب للمسلمين أنهم أول من وضع مصنفات مستقلة في علم التصنيف، بل يرجع الفضل إليهم أنهم أول من تفتن إلى أن موضوع التصنيف علمٌ، ووضعوا له تعريفاً، وحددوا مكانه ضمن خريطة المعرفة الإنسانية. وقد سبقوا في ذلك الغرب الذي تنبّه لعلم التصنيف في القرن التاسع عشر مع ظهور أول نظام تصنيف مكتبي على يد ميلفيل ديوي Melvil Dewey (1851-1931) [11].

3.1. خصائص علم تصنيف العلوم

إن علم تصنيف العلوم ليس علماً وصفيّاً بحتاً، بل هو علم معياري. يقول عبد المجيد النجار: "إن هذا العلم يحمل في ظاهره الوصفي التقريري غاية معيارية، تتمثل في اتخاذه من وصف ما كان في واقع العلوم بناءً لما ينبغي أن يكون في توجهات العقل إلى مواضع المعرفة سواء على مستوى تربوي بالإرشاد إلى كيفية استيعاب العلوم وتمثله، أو على مستوى إبداعي بالتوجيه على المستجد من مناطات الاستكشاف العقلي" [6].

كما أنه علماً على علاقة بالتاريخ، وهذا ما يفهم من كلام ابن النديم في تصنيفه، إذ اعتبره تتبعاً تاريخياً للعلوم عند المسلمين حيث يقول: "هذا فهرست كُتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها، في أصناف العلوم وأخبار مصنفها، وطبقات مؤلفها وأنبيائها، وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم ومناقهم، منذ ابتداء كل علمٍ اخترع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة" [1]. فهو إذًا علماً على علاقة بالتاريخ من هذه الجهة، وبالمنطق من جهة أخرى حتى سُمي بالمنطق العلوم" [4].

4.1. معايير تصنيف العلوم

إن تصنيف العلوم هو "محاولة إيجاد قواسم مشتركة بين مختلف العلوم من أجل التمييز بينها في مجموعات محددة، وذلك من خلال اعتبار معيارٍ أو معايير محددة كآلية للتمييز. وقد تباينت المواقف في تحديد هذه الآليات، فمن المُصنِّفين من اعتمد على النظر في الغاية من العلم، ومنهم من اعتمد على النظر إلى مصدر العلوم، وهناك من ركز على المقابلة بين طبيعة العلوم من حيث كونها نظرية أو عملية. وبسبب هذا التباين في تحديد المعايير جاء الخلاف في تصنيف العلوم، واتجهت أغلب الآراء نحو التصنيف الثنائي التقابلي، مثل علوم عقلية مقابل علوم نقلية، وعلوم وسائل مقابل علوم مقاصد، وعلوم نظرية مقابل علوم عملية، وعلوم شرعية مقابل علوم الأوائل [أي العلوم العقلية]" [8].

5.1. فوائد تصنيف العلوم

لتصنيف العلوم فوائد جمة لا تُنكر، بالنظر لغايته التعليمية. يقول الفارابي، في كتابه "إحصاء العلوم": "ويَنْتَفِعُ بما في هذا الكتاب الإنسان إذا أراد أن يتعلم عِلْمًا من هذه العلوم وينظر فيه، عِلْمٌ على ماذا يقدم، وفي ماذا ينظر، وأي شيء سيفيد نظره، وما غناء ذلك، وأي فضيلة تُنال به، ليكون إقدامه على ما يقدم عليه من العلوم على معرفة وبصيرة، لا على عَمى وغرر" [5].

وأشار الخوارزمي في مقدمة كتابه "مفاتيح العلوم" إلى الغاية من تصنيف العلوم وفوائده، قائلا: "دعتني نفسي إلى تصنيف كتاب ... يكون جامعًا لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات، متضمنًا ما بين كل طبقة من العلماء من المواضع والاصطلاحات، التي خلت منها، أو من جملها، الكتب الحاضرة لعلم اللغة حتى أن اللغوي المبرز في الأدب، إذا تأمل كتابا من الكتب التي صُنفت في أبواب العلوم والحكمة، ولم يكن شَدَّ صدرًا من تلك الصناعة، لم يفهم شيئًا منه، وكان كالأمي الأعمى عند نظره فيه" [3].

6.1. موجز تاريخ تصنيف العلوم قبل اليونان

"يذهب أغلب من كتبوا في تاريخ المعرفة العلمية، أن المعارف والعلوم بدأت في بلاد الإغريق، وأن الحضارة اليونانية هي أصل الحضارات، وهي مقولة مشهورة بالمغالطات والتحيز إلى العلم الغربي ممثلًا في العلم اليوناني، وتتجاهل الحضارات السابقة مثل الحضارات الشرقية مُتمثلة في مصر وبلاد ما بين النهرين وفارس والهند والصين. فالعلم اليوناني كان إحياءً لعلوم من سبقوهم، ولم يكن متأصلاً بذاته، يشير إلى ذلك مؤرخ العلوم جورج سارتون George Sarton (1884-1956) الذي قال إن هنالك ظاهرتين أفسدتا فهم العلم القديم، الأولى ظاهرة إهمال العلم الشرقي، والثانية إهمال الإطار الخرافي الذي نشأ فيه العلم اليوناني" [7].

وتجدر الإشارة إلى أن من أهم مظاهر الحضارة الآشورية، في بلاد ما بين النهرين، هي المكتبات، ومن أهمها مكتبة آشور بانيبال، التي تعود للقرن السابع قبل الميلاد، وكانت تحوي حوالي ثلاثين ألف لوح مفرسة بطريقة متقدمة بحيث تندرج تحت رؤوس موضوعات مثل الأدب، والشعر، والفنون، والسحر، واللغة، والطب وغيرها.

وعرف المصريون القدماء علومًا شتى، كالفلك والحساب والهندسة، كما يشهد على ذلك ما بنوه من أهرامات. وبرعوا في الطب، والذي كان مصنّفًا إلى موضوعات: منها الأدعية التي تُقرأ قبل العلاج، والأمراض الباطنية، وأمراض العين، والأمراض الجلدية وأنواعها، وأمراض الأطراف، وأمراض النساء، وموضوعات أخرى.

واشتهر أهل فارس قديمًا بالعمارة والفنون بشكل خاص، ولم ينشغلوا بالأدب والعلوم أكثر من انشغالهم بالحروب والمعارك، والأثر الباقي من الفكر الفارسي هو كتاب "الأبستاق" الذي يمثل شريعة زرادشت) قبل القرن الخامس قبل الميلاد) وهو أصل أفكارهم وفلسفتهم. ويُني الفكر الفارسي على أساس الثنائيات: فالموجودات طاهرة وشريرة، والصراع قائم بين الشر والخير، والجنة والجحيم، والألوهية والإنسان، وهكذا دواليك.

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ظهر مُعلم الصين وحكيمها كونفوشيوس، الذي ترك وراءه خمس مؤلفات تُعرف باسم "الكلاسيكيات الخمسة"، وكانت العلوم تُصنف في زمنه إلى ثلاثة أقسام رئيسة [7]:

- التاريخ؛
- الشعر؛
- آداب اللياقة: وتشمل القانون والحكومة.

2. تصنيف العلوم عند اليونان

تميزت الحضارة اليونانية عن غيرها من الحضارات القديمة، لكونها استطاعت أن تنقل البشرية من التفكير الأسطوري الخرافي إلى التفكير الفلسفي التأملي، وهي نقلة نوعية عظيمة، مكنت الفلاسفة من محاولة تفسير الظواهر الطبيعية بقوانين الطبيعة ذاتها، وليس بعزوها إلى الآلهة كما كان الحال في السابق. وفي الحضارة اليونانية، ظهرت الفلسفة، وازدهرت العلوم والمعارف كالطب والفلك والحساب والهندسة وغيرها، مما كان معروفاً في الحضارات القديمة (بلاد الرافدين، مصر، فارس، الهند). ومع تنوع العلوم والمعارف وتعددتها ظهرت الحاجة إلى تصنيفها.

1.2. تصنيف العلوم عند أفلاطون

أسس أفلاطون (427-347 ق.م) في أثينا "الأكاديمية" ليتلقى فيها الطلاب الدروس، واستمرت بعده إلى أن أغلقت في القرن السادس الميلادي. ترك أفلاطون عدداً كبيراً من الكتب صاغ أغلبها في صيغة محاورات، حيث يرى أن الحوار هو الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة التي تكون مكونة في النفس كالنار في الحجر. تحوي المحاورات الأفلاطونية التي تسمى تصنيف المعرفة الموضوعات التالية: الحق والباطل؛ العفة والشجاعة؛ السياسة والفلسفة والأخلاق؛ العلم والقانون؛ النفس والحب؛ نظرية المعرفة؛ أصل العالم؛ المنطق؛ تنظيم المدينة [7].

وقسم أفلاطون، في كتابه السادس عن الجمهورية، المعرفة إلى قسمين كبيرين [15]:

- علوم المحسوسات؛
- علوم المعقولات.

2.2. تصنيف العلوم عند أرسطو

ثم جاء تلميذه أرسطو (384-322 ق.م) Aristotle وعرض تصنيفاً آخر للعلوم، في ثلاثة مؤلفات من مؤلفاته، وهي: كتاب ما بعد الطبيعة، وكتاب الأخلاق، وكتاب الخطابة [16].

وقسم العلوم وفق المعيار الغائي إلى [8]:

- علوم نظرية: وهي العلوم التي يرى أن غايتها الاطلاع، وقد أدرج تحتها العلم الرياضي والطبيعي والإلهي.
 - علوم شعرية: وهي العلوم التي يرى أن غايتها الإبداع، وقد أدرج تحتها: البلاغة والشعر والجدل.
 - علوم عملية: وهي العلوم التي يرى أن غايتها الانتفاع، وقد أدرج تحتها: الأخلاق والاقتصاد والسياسة.
- ويتضح من هذا التصنيف أن أرسطو أعلى من قيمة العلوم النظرية على غيرها من العلوم، ومرّد ذلك إلى طبيعة الثقافة اليونانية التي كانت تسمو بما هو نظري على غيره. وقد استمر هذا التصنيف الأرسطي لعدة قرون، وتأثر به علماء الحضارة العربية الإسلامية في بدايتها.

3. تصنيف العلوم عند الرومان

لم يكن للرومان دور كبير في مجال العلم وتقدمه حتى القرن الثاني قبل الميلاد، لكن القرون الخمسة الأولى للميلاد شهدت تفاوتاً ما بين ازدهار للأدب والعلوم وتدهور لها، أما الفلسفة فقد سيطرت عليها الأفكار الدينية وسُخّرت لخدمة أغراضها. ودوّنت في هذا العصر بعض المعارف الجديدة، مثل التاريخ والجغرافيا والقانون والتراجم والنقد الأدبي والرحلات والوصف [7].

وفيما يلي نعرض تصنيفين للعلوم لدى الرومان، أحدهما لماركوس فارو (Marcus Varro 116-27 ق.م) والآخر للقديس أوغسطين (Saint Augustine 354-430 م):

1.3. تصنيف العلوم عند ماركوس فارو

ولد ماركوس فارو في مدينة ريتي Rieti الإيطالية وهو كاتب غزير الإنتاج، ويُعتبر أكبر عالم موسوعي روماني. صنف أول موسوعة نسقية تشمل كل فروع المعرفة في عصره. بلغت مؤلفاته 74 كتابا [7] و[18].

قسّم ماركوس فارو العلوم في دائرة معارفه إلى الآتي:

- القواعد والنحو: وتشمل اللغة والأدب؛
- الديالكتيك (الجدل): وتشمل المنطق والفلسفة وفروعهما؛
- الهندسة؛
- الحساب؛
- علم الفلك والكون والعالم؛
- الموسيقى؛
- الطب؛
- العمارة.

2.3. تصنيف العلوم عند القديس أوغسطين

وُلد القديس والفيلسوف أوغسطين بمدينة تاغست النوميديّة (سوق أهراس حاليا، بالجزائر). درس الفلسفة اليونانية واللاهوت والخطابة والآداب [17].

أما تصنيفه للعلوم فهو عبارة عن جمع لتقسيمات أفلاطون وأرسطو، وهي [7]:

- الفلسفة الطبيعية: الفيزياء؛
- الفلسفة العقلية: المنطق، والميتافيزيقا، واللاهوت؛
- العلوم النظرية: الموسيقى، والفلك، والحساب، والهندسة؛
- العلوم العملية: الأخلاق، والاقتصاد، والسياسة.

مراجع

[1] ابن النديم: الفهرست، ضبط وشرح وتعليق وتقديم الدكتور يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996.

[2] ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، 2008.

[3] الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف: مفاتيح العلوم، منشورات مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1981.

[4] العمري، مرزوق: تصنيف العلوم عند المسلمين، مجلة الجامعة الأسمرية، 9 (16)، 2012.

<http://dspace.asmarya.edu.ly>

[5] الفارابي، أبو نصر: إحصاء العلوم، طبعة مركز الإنماء القومي، لبنان، 1991.

[6] النجار، عبد المجيد: مباحث في منهجية الفكر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992.

[7] الهندي، أنس: ملخص تصنيف المعارف والعلوم) تلخيص لكتاب تصنيف المعارف والعلوم عبر العصور لفوزي خليل الخطيب)

www.academia.edu

[8] بويدي، حسين: تصنيف العلوم عند ابن حزم (محاضرات).

https://www.univ-constantine2.dz

[9] جلوب الفرحان، محمد: تصنيف العلوم ما بين اليونان والعرب، 2017

https://philospaper.wordpress.com

[10] روزنتال، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، مكتبة المثنى، بغداد، 1963.

[11] سالم، ناهد محمد بسيوني: منطق تصنيف العلوم في نظم التصنيف العربية الإسلامية: قراءة تحليلية مقارنة

بنظم التصنيف الغربية الحديثة، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 7 (3)، 2016.

[12] طاش كبري زاده: مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.

[13] عطية، محمود سعيد حميدة: معايير تصنيف العلوم وإمكانية الاستفادة منها في حل مشكلات البرامج

الأكاديمية، الدراسات الإسلامية، 52 (3)، 2017.

https://mirror.academia-arabia.com

[14] مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، 1983.

[15] مكروز، محمد: علم تصنيف العلوم وتجسيد فلسفة التكامل المعرفي، مجلة قضايا معرفية، 1 (7)، 2021.

[16] Aristote: Œuvres complètes, sous la direction de Pierre Pellegrin, Flammarion, Paris,

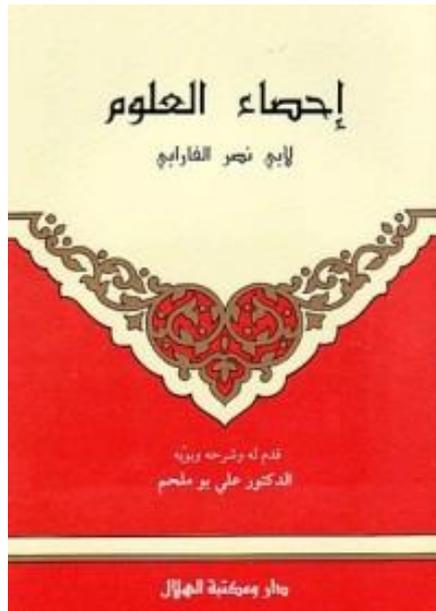
2014.

[17] Augustine of Hippo (Saint Augustine),

https://en.wikipedia.org/wiki/Augustine_of_Hippo

[18] Marcus Terentius Varro: https://en.wikipedia.org/wiki/Marcus_Terentius_Varro

[19] Platon: Œuvres complètes, Traduction et notes de Léon Robin, Gallimard, Paris, 1950.



غلاف كتاب إحصاء العلوم للفارابي